الدراما في كبوتها الأخيرة

فاديا جبريل

أعمال درامية كثيرة أطلت علينا خلال شهر رمضان المبارك، منها الجيد ومنها من عانى نقصاً في القدرة على ملامسة الواقع، ومنها من جسّد لنا عصراً أنتجت له عشرات الأعمال.. كانت سمتها الغالبة الوقوع في التكرار لدرجة الالتباس وشدة التشابه في الزمان والمكان وحتى في الشخصيات.

لكن أكثر ما يمكن الوقوف عنده، هو لجوء بعض الأعمال الدرامية إلى اعتماد لغة مناطقية «بيئوية» تحدد انتماءات معينة في سياق اجتماعي يعيشه كل فرد منا في البقعة السورية الواسعة... إذاً ماذا أضاف هذا التحديد سوى استخدامه كعامل محفز لاستقطاب أكبر نسبة مشاهدة، بالإضافة إلى اعتماد بعض الأعمال على تقديم صور نقدية لقطاعات هامة بأسلوب هزلي كوميدي بعيد كل البعد عن النقد الذي نحتاجه فعلاً لتحسين أداء هذا القطاع وغيره، وليس تحويله إلى صورة ممسوخة تبكينا لشدة قباحتها.

إزاء ذلك ألا يحق لنا أن نتساءل: ما هي العبرة من تجسيد شخصية رجل الأمن بحالة هيستيرية على الدوام.. ؟؟ وماذا يعني مشهد تحويل أناس بسطاء يعيشون «الولدنة» إلى إرهابيين وتسويقهم على هذا الأساس إرضاء للمجتمع الدولي، وتحقيقاً لغايات لا تخدم الدراما السورية في أهدافها الكبرى؟!! وكأن المشهد يحاول القول باستحالة وجود هؤلاء في الواقع.

ولنا أن نسأل أيضاً حول الأهداف من التكرار في إظهار صورة المرأة كآلة مبرمجة على الطاعة العمياء والخضوع للظلم والقهر، وبيد الرجل فقط جهاز التحكم... أوليس كثرة الأعمال من هذا النوع هي سعي جدي لتثبيت الحالة المتخلفة لصورة المرأة، وخاصة كثرة المشاهد الدرامية التي تظهر حجم المديح الذكوري لتلك المرأة المسلوبة الحرية والفكر والتفكير إلا في شيء واحد: من هو ذلك الذي سينقلها من تحت سلطة إلى أخرى أشد وأقسى، أما الفوز العظيم فهو ابتسامة رجولية خجولة «حفاظاً على الهيبة» هي جلّ ما تصبو إليه في الحياة.!!

والسؤال الأكبر الذي يبرز هنا هو: هل استنفد الكتّاب كل أفكارهم، وهل تعبت أو أفلست الأقلام في رسم صورة أخرى للمرأة في ذلك الزمان الذي يصرون على تجسيده على الدوام، زمان تسيطر فيه العادات والتقاليد البالية بشكل مطلق، صورة تجعلنا نؤمن أننا نكمل مسيرة لا أن نبدأ من القاع...

ألا توجد صورة لامرأة أرملة كافحت لتربية أطفالها، أو لسيدة حققت نجاحاً ما، أو لامرأة عملت خارج جدران الحرملك وتمردت عليه... نعم «هم وهن» موجودون، باختلاف ظروف حياتهم، لكن لا أدري ما الغاية من الإصرار على تثبيت حالة نساء الحارة.

في زمن صعب كالذي نعيشه، كل وأكثر ما نحتاج إليه هو البحث عما يجعلنا نواكب عجلة الحضارة والتنمية، ولا يأتي ذلك إلا في الابتعاد عن الذي حاولت بعض الأعمال الدرامية الأخيرة التطرق إليه من هزل وسطحية ويأس وتخلف، لأن رسالة الإعلام تقتضي التركيز على دوره التغييري ولاسيما في الدراما.

كلنا أمل أن تكون كبوة بعض الأعمال التي قدمت في هذا الموسم دافعاً لإبداع ما هو أفضل وليس السعي نحو إنتاج ساعات درامية غايتها الربح المادي فقط.

راجين ممن يقومون على هذه الصناعة التي بدأت تأثيراتها تطال كل جوانب الحياة، التركيز أكثر على هموم المجتمع ومشكلاته بعمق ومسؤولية أكبر.